المدن التي لا تزال آثارها ظاهرةً الى يومنا . وقد شهد على عمران تلك الجهات احد جغرافيي اللاتين يُدعى پمپونيوس ميلا (Pomponius Mela, III, 12) حيث وصف غنى الامم التي تقطن شمالي سوريَّة وقد نسب ثروتها « الى خصب مراكزها وكثرة انهارها التي تجري فيها السفن فتسهل بها المبادلات التجاريَّة »

فترى من ثمَّ انَّ سوريَّة كانت بموقعها العجيب اهلًا بان تصبح مركزًا لعلائق العالم القديم او قل بالحري انَّ الله جعلها رائدًا للتمدّن ووصلةً بين الامم العاديَّة اي المصريين والكلدان والامم الوسطى من يونان ورومان اجداد عالمنا المستجدّ . ولو رقينا في سُلَّم الاعصار الى اوائل القرون المتوسّطة وجدنا اهل سوريَّة يتأثَّرون اعقاب آبائهم فيتوسَّطون بين الغرب واواسط آسية فهم الذين ادخلوا التمدُّن اليوناني في مدرستَي نصيبين وجنديسابور كما انَّهم جلبوا الى الغرب مرافق تلك البلاد

٣

السوريون حَمَلة التمدُّن القديم

فمن كلّ ما سبق لا يبقى للقارئ ريب في انَّ اهل سوريَّة بتفرُّغهم للمبايعات وبتنقُّلهم في انحاء البرّ والبحر كانوا الرباط الوثيق بين سواحل البحر المتوسط والبلاد النازحة عنهُ ومزجوا مزج الماء بالراح الشرق العتيق بالغرب المترعرع . نعم انهم كانوا قبل كلّ شيء يعملون لاغراضهم ومصالحهم الخصوصيَّة الَّا انَّ عملهم هذا كان يفيد الشعوب ايضًا فيعمّم ما تكلّ منها من المحاصيل ويخرجها من عزلتها فينتفع كلّ شعب مما اصابهُ الآخر سواء كان في الماديَّات او في الامور العقليَّة والادبيَّة والدينيَّة . وفي هذا لعمري جلُّ الفائدة لا سيَّما في تلك الازمنة التي كانت الشعوب لا تعرف بعضها الَّا في ساحات القتال . فالفينيقيون نقلوا الى الغرب تمدُّن وادَي النيل والفرات وعرَّفوا اهل تلك البلاد بمحصولات مصر وما بين النهرين واعمالهما الصناعيَّة بعد أن اخرجوها على هيئة جديدة توافق احوال الغربيين وتناسب حاجاتهم . ولعلَّهم اثاروا في قلوب تلك الشعوب

الجديدة رغبةً في الترقي والنجاح ومهَّدوا الطريق للفنون والآداب بين اليونان الذين ما كانوا ليبلغوا ذروة الكمال في الفنون الجميلة لولا توسّط الفينيقيين فانَّهُ من المقرَّر انَّ التمدُّن اليوناني لم ينشأ بغتةً على غير استعداد وبدون تمهيد وانَّما بُني على اساس سابق تقدَّمهُ نزيد تمدُّن امم الشرق. وفضل الفينيقيين انهم كانوا حمَلةً لذلك الترقي القديم الى اليونان. فأغنوا الغرب بمحصولات الشرق وبمصنوعات الشام فانتبهت قرائح الغربيين الى مجاراتهم ومزاحمتهم في العمـــل بعد ان اعملوا النظر في نحت التماثيل والدمى وفي حفر الحجارة الكريمة وفي صياغة الجواهر كما استلمها الفينيقيون من اهل مصر وبابل فزادوها تحسيناً. فهذه المصنوعات الفينيقيَّة كانت للغربيين كلقاح لاذهانهم وشحذ لافكارهم أدَّى بهم بعد قليل الى تلك العجائب الصناعيَّة التي تفرَّد بها اليونان بعد زمن. وان قيل انَّ الفينيقيين لم يطلبوا في ذلك غير الربح والمكسب فنجيب انَّ فائدتهم الخاصَّة لا تنفي الخِدَم التي ادَّوها لغيرهم. والخدمة خدمةٌ ولو طُلب منها منفعة (١ ولعلَّ الكتبة لم ينسبوها قبلًا للفينيقيين لزعمهم انَّ الفينيقيين كانوا تجاراً لا يهتمُّون بالفنون كمألوف عادة التجار وجهلهم تأثير الصناعة الشرقيَّة بالصناعة اليونانيَّة

وقد اراد الله ان يعظّم هذه الدعوة الشريفة التي خوَّلها للفينيقيين ليكونوا وسطاء ونَقَلةً للموادّ التجاريَّة وللامثلة الصناعيَّـــة بان جعلهم سماسرة الافكار كما جعلهم سماسرة الاموال ليُعدّوا الشعوب الجديدة لقبول الآداب والعلوم. ومهما قلنا في إطرائهم فانّنا لن نبالغ وذلك ليس فقط لانَّهم بلغوا بقوافلهم الى البلاد النازحة فوصلوا بين اطراف الاقطار واقاصي الاصقاع لكن ايضاً لانهم زوَّدوا الشعوب بآلة عجيبة كانت اعظم عامل للتمدُّن نزيد صناعة الكتابة وحروف الهجاء

والحقّ يقال انَّ اختراع الابجديَّة قد اجدى للبشر نفعاً قد خلَّف وراءهُ الاختراعات التي تتباهى بهـــا اعصارنا كفنّ الطباعة واكتشاف فوائد البخار والكهرباء. لانَّ بهذه الصناعة الكتابيَّة انفتحت للمعارف البشريَّة ابواب واسعة اذ بها نستطيع تدوين كلّ لغات العـــالم حتى قبل فهمها. بها جرى تقلُّب عظيم في احوال الشعوب لكنهُ تقلُّب هادئ سلميّ غايتهُ التحابّ وتقريب الامم من بعضها

---

١) اطلب تاريخ التجارة (Speck: *Handelsgeschichte*, I, 414, 426)

يقول الفلاسفة انَّ العادة طبيعة ثانية . يريدون انَّ الانسان لا يتأثَّر ممَّا اعتاد نظرهُ وانتلفهُ بالتكرار فانَّ العجائب الطبيعيَّة التي نراها كلّ يوم تسقط من اعيننا . فكذا قلْ عن اختراع الابجديَّة . قال الاب ديلاتر اليسوعي : « ليت شعري ايوجد شيء اعجب من اختراع الانسان لعشرين الى ثلاثين علامة يتمكَّن بها على ان يترجم عن كلّ معاني قلبهِ وعواطف نفسهِ » وهذه الطريقة العجيبة في سذاجتها يعود الفضل في اختراعها وان شئت قُلْ في نشرها الى الفينيقيين . فانَّهم أبطلوا تلك الطرائق السابقة التي شاعت قبلهم بتوفير الصور الكتابيَّة وتمثيل مقاطع الالفاظ ورسم اصوات الكلام التي كان يتيه فيها علماء مصر وبابل . فنابت بحروف الهجاء عن تلك المئات والالوف من العلامات حروف قليلة تؤدّي كل تهجيات اللسان في لغات معظم الشعوب القديمة والحديثة

وهنا ايضاً قد لعبت الجغرافيَّة دوراً مهمًّا . قال لونرمان في تاريخ الشرق القديم (ج ١ ص ٤٤٨) : « كان ينبغي للشعب المدعوّ لتنظيم الكتابة البشريَّة وتكميلها ونشرها ان يكون شعباً تجاريًّا عاملًا لا يستغني عن مسك الدفاتر وضبط الحسابات التجاريَّة ويكون مع هذا متاخماً لمصر موسوماً بسمة التمدّن المنتشر على ضفاف النيل » . ولا نعرف في العالم القديم امَّة غير الأمَّة الفينيقيَّة كانت تقوم بهذه الشروط اذ كانوا بموقع بلادهم احقّ من سواهم بان يكونوا قوماً وسَطاً متأهبين لنقل محصولات التجارة الى الاقطار البعيدة والسواحل النائية وهم مع ذلك مواصلون للاعمال مع مصر جارتهم

وقد نقل الفينيقيون الى البلاد السحيقة ليس فقط حروف الهجاء لتسهيل المعاملات بل كلّ مصنوعات بابل ومصر مع اعمال صناعتهم الوطنيَّة واضافوا الى ذلك ما نقلوه من الادوات المفيدة ومن الحيوانات الداجنة ومن احرار البقول . وقد وجد الاثريُّون في اقطار غربيَّة شتَّى ما كان اتى بهِ اليها الفينيقيُّون من المعادن وضروب الخشب والصمغ والانسجة والحرفيَّات وغير ذلك من المصنوعات التي اعدَّت للتمدُّن القبائل الغربيَّة المستوطنة للغابات . وقد جرى السوريُّون على هذه الطريقة في نقل اختراعات الشرق ومحصولات التمدّن نحو الف سنة حتَّى اثَّر مثلُهم في قلوب اولئك السكان فاخذوا ينهجون منهجهم ويتعقَّبون مدارجهم

قال بمپونيوس ميلا السابق ذكرهُ (ك ١ ف ٢) : « ان الفينيقيين قوم جهابذة

حذّاق يحسنون آداب الحرب ويستفيدون من منافع السلم . هم الذين وضعوا حروف الهجاء. فاستخدموها لاعمال شتّى واخترعوا فنوناً عديدة وهم ايضاً الذين سبقوا الى خوض البحار وتقدّموا الشعوب في الحروب البحريّة »

جاء في كتاب حديث للعلّامة ڤكتور بيرار دعاهُ « الفينيقيون والاوديسّاة » (V. Bérard: *Les Phéniciens et l'Odyssée*) : انّ جغرافيّة منظومة اوميروس الاوديساة مبنيّة غالباً على المعلومات التي استفادها ذلك الشاعر المفلق من الفينيقيّين » . ثم استشهد لتأييد قوله بالجغرافي سترابون حيث قال : انّ الفينيقيين ارشدوهُ الى معرفة وصف البلدان (οἱ γὰρ Φοίνικες ἐδήλουν τοῦτο) . وكتاب المسيو بيرار مشحون بالتفاصيل والادلّة المثبتة لسيطرة الفينيقيين على البحار (اطلب المشرق ٩ : ٢٣٤)

ولما اراد سنّاحريب ملك اشور ان يجهّز لدولتهِ اسطولاً بحريًّا في الخليج العجميّ لم يجد من يقوم بعملهِ غير الفينيقيين . قال في احدى كتاباتهِ : « قد اقمتُ في نينوى رجالاً من الحثّيين (وكان الحثيون من سكان سوريّة) أسرَهم قوسي فعمّروا لي مراكب كبيرة على مثـال بلادهم فجهّزتُها بالملّاحين الصوريين والصيدونيين الذين قبضَتهم يدي »

وقد حفظ اهل فينيقية السيادة على البحار حتى في عهـد اليونان بعد فتوحات الاسكندر الذي جرى على مثـال سنّاحريب في تجهيز المراكب . وقلّما تجد في تواريخ اليونان كاتباً يذكر سفينةً لا يكون ربّانها سوريًّا او فينيقيًّا

٤

السوريون دُعاة الدين

هذا ولاهل الشام فخرٌ آخر غير المفاخر السابقة فانّهم ليس فقط توسّطوا بين الدول القديمة المتمدّنة والامم التي منها اشتقّت الشعوب المستحدثة لكنّهم ايضاً نالوا امتيازاً آخر فدعاهم الله لتربية العالم الادبيّة والدينيّة فصاروا متوسّطين بين الله والانسان ومن هذا